

السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره
رؤية تاريخية في نتاجه الفكري

المدرس الدكتور
حسنين جابر الحلو
جامعة الكوفة - كلية الآداب

السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله رؤية تاريخية في نتاجه الفكري

المدرس الدكتور

حسنين جابر الحلو

جامعة الكوفة - كلية الآداب

المقدمة:

إن النظرة التاريخية للمدرسة النجفية لها معطيات خاصة لأنها كعبة العلم وفيها باب علم الرسول الأعظم محمد صلوات الله عليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث كان للدرس الحوزوي اثر فعال في عقول الكثير من المفكرين وللدرس الفلسفي الأثر كذلك، خرجت النجف الأشرف الكثير من هؤلاء وقد اخترت السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله كونه من العناوين التي لا يمكن ان نجتازها في ميدان الفلسفة الإسلامية والفكر السياسي في النجف الأشرف حيث انه طور مناهج البحث في العلوم الإسلامية الأساسية التي يركز عليها نظام التعليم في الحوزات الدينية، كالفقه وأصول الفقه وأصول العقيدة والحديث والتفسير والفلسفة والمنطق. واسفرت جهوده، في جميع هذه المجالات، عن نتائج علمية هامة ونظريات جديدة، كما اسهم، بما كتبه من بحوث ودراسات خارج النطاق الحوزوي التقليدي، في اضافة مواد ثقافية جديدة الى التعليم الديني وسعت آفاقه وجعلته يستوعب العلوم الانسانية الحديثة، وكانت مجمل ابحاثه ودراساته صدى لحاجات عصره، واستجابة للتحديات الحضارية التي تواجه مسيرة الإسلام في العصر الحديث، وابرز مثل على ذلك كتابا: "فلسفتنا" و"اقتصادنا" اللذان كان لهما اثر بالغ في صد التيارات الفكرية الوافدة والدفاع عن عقيدة الامة، كما كانت محاضراته ومؤلفاته مصدر جذب واستقطاب لعناصر جديدة من الشباب المثقف،

أخذوا يدخلون الحوزة العلمية ويضخون دماً جديداً في عروقها ويجندون أنفسهم للدعوة إلى الله والعمل في سبيل الإسلام، فضلاً عن تأثيرها الكبير في زيادة وعي الأمة وارتباطها بدينها، حيث أعطى للعمل الإسلامي أبعاداً وآفاقاً جديدة، وفتح أمامه طرقاً وأساليب حديثة، أسهم من خلالها في الانتقال بوعي الأمة مراحل متقدمة على صعيد العمل لرفع الظلم عنها وضمان تمكين قيم الإسلام وأحكام شريعته بقوة في واقعها الاجتماعي والسياسي، انقسم البحث إلى محورين الأول عن نبذة عن حياته والثاني عن معطياته (بنظرة تاريخية).

المحور الأول

نبذة عن حياة السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله

ولد سماحة السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله بن السيد حيدر بن السيد إسماعيل بن السيد صدر الدين بن السيد محمد بن السيد إبراهيم شرف الدين، من سلالة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام ^(١) بمدينة الكاظمية يوم ٢٥ ذو القعدة عام ١٣٥٣هـ وقد نشأ يتيماً منذ صغره فتكفل به أخوه الأكبر آية الله إسماعيل الصدر الذي اهتم بتعليمه وتدريبه أيضاً، وقد ظهرت علامات النبوغ والذكاء عليه منذ صغره وقد استمد هذا من أخواله آية الله العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين ^(٢).

والشيخ راضي آل ياسين وآية الله العظمى الشيخ مرتضى آل ياسين. في عام ١٣٦٥هـ هاجر أخوه إسماعيل الصدر إلى مدينة النجف الأشرف التي تعد أكثر المدن العلمية التي تحتضن مراجع الشيعة الإمامية، فاستأجروا داراً متواضعاً فيها. وقد كان أكبر همه هو استيعاب المناهج الدراسية والعلمية، وفي تلك الفترة ألف كتاباً يضم اعتراضاته على الكتب المنطقية بعنوان (رسالة في المنطق).

في أوائل السنة الثانية عشرة من عمره درس كتاب "معالم الأصول" على يد أخيه إسماعيل الصدر فكان لفرط ذكائه يعترض على صاحب المعالم باعتراضات وردت في كتاب كفاية الأصول للخراساني. ومن هذه الاعتراضات أنه ورد في بحث الضد في كتاب معالم الأصول الاستدلال على حرمة الضد بأن ترك أحدهما مقدمة للآخر. فاعترض عليه الصدر بقوله "إذاً يلزم الدور" فقال له إسماعيل الصدر "هذا ما اعترض به صاحب الكفاية على صاحب المعالم".

أهم أساتذته:

آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين وهو خال الصدر وقد حضر عنده مرحلة البحث الخارج في صغره.

آية الله الشيخ ملا صدرا البادكوبي وقد درس عنده الجزء الثاني من الكفاية والأسفار الأربعة.

آية الله الشيخ عباس الرميثي.

آية الله أبو القاسم الخوئي^(٣)، وقد درس عنده مرحلة البحث الخارج وقد كان أبو القاسم الخوئي أول من أجاز محمد باقر الصدر وقد كان يرجع طلابه إلى الصدر عند عدم فهمهم لبعض عناصر الدرس.

آية الله الشيخ محمد تقي الجواهري وقد درس عنده الجزء الأول من الكفاية وجزءاً من اللمعة.

آية الله إسماعيل الصدر.

كانت بعض الكتب الدراسية يناقشها ويتباحث فيها مع أساتذته فقط أو أنه يعرض عليهم الدرس. قال الصدر عن نفسه "إنني لم أقلد أحداً منذ بلوغي

سن الرشد". وقد كان الصدر في تلك الفترة قد كتب تعليقة على الرسالة العملية لخاله الشيخ محمد رضا آل ياسين المسماة بـ "بلغة الراغبين". وكما هو معلوم ان الفقه هو الذي عكس صورة الإسلام خلال تاريخه الطويل ولم يكن في حالة جمود^(٤) ، ولان الفقه لا يزال يبحث المواضيع ويتناول نفس المنطقة المحدودة^(٥) فلذلك كان لابد أن يستوعب الواقع^(٦) ومن شواهد تواضع الصدر أن آية الله كاظم الحائري قال: "حدثني ذات يوم: أنه حينما كتب كتاب فلسفتنا أراد طبعه باسم جماعة العلماء في النجف الأشرف بعد عرضه عليهم متنازلاً عن حقه في وضع اسمه الشريف على هذا الكتاب. إلا أن الذي منعه عن ذلك أن جماعة العلماء أرادوا وضع بعض التعديلات في هذا الكتاب وكانت تلك التعديلات غير صحيحة في رأي أستاذنا الصدر ولم يكن يقبل بإجرائها فيه فاضطر أن يطبعه باسمه" وقد كان الصدر منهجاً خاصاً في تحصيل العلم إذ أنه كان يقرأ ويكتب ويفكر لمدة ستة عشر ساعة في اليوم وأغلب الظن أن أكثر شيء يشتغل به هو التفكير.

مجالس السيد الصدر الحوزوية:

بحث الأصول، وكان يلقيه في مسجد الجواهري بعد أذان المغرب بساعة في الأيام الدراسية في الأسبوع.

بحث الفقه، وكان يلقيه في جامع الطوسي في الساعة العاشرة صباح كل يوم من الأيام الدراسية.

كان للسيد الصدر رحمته الله مؤلفات كثيرة أهمها:

غاية الفكر في علم الأصول، وهو عشرة أجزاء طبع منه الجزء الخامس فقط وفقدت الأجزاء الأخرى.

فدك في التاريخ، وهو كتيب كتب فيه بعض الملاحظات عن تاريخ فدك في

سن الحادية عشر، ومع ذلك فإنه يعد مرجعاً بين الكتب الأخرى التي تتحدث عن نفس الموضوع.

فلسفتنا، وهو كتاب يناقش المذاهب الفلسفية وخاصةً الفلسفة الماركسية التي كانت تنتشر بحدة في أوساط العراقيين.

اقتصادنا، وهو كتاب يتحدث فيه عن الاقتصاد الإسلامي ويناقش فيه النظريات الاقتصادية مثل الرأسمالية وغيرها.

البنك اللاربوي في الإسلام.

المدرسة الإسلامية.

المعالم الجديدة للأصول.

الأسس المنطقية للاستقراء.

بحوث في شرح العروة الوثقى (أربعة أجزاء).

موجز أحكام الحج.

الفتاوى الواضحة.

دروس في علم الأصول (جزءان)، وهو كتاب يدرس كمنهج في علم الأصول في مرحلة السطوح.

بحث حول الولاية.

بحث حول المهدي.

تعليقة على رسالة بلغة الراغبين.

تعليقة على منهاج الصالحين.

الإسلام يقود الحياة، وهو عبارة عن بعض المواضيع الإسلامية.

المدرسة القرآنية، وهو عبارة عن محاضرات عن التفسير الموضوعي.
أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف، وهو عبارة عن محاضرات جمعها
بعض طلابه وطبعوها ككتاب.

الصدر كتب أخرى صادرته السلطة، منها كتاب لم يحدد له عنواناً ولكن
موضوعه هو أصول الدين. كتاب آخر عن تحليلي الذهن البشري. وقد كان
الصدر في نيته تأليف كتاب بعنوان مجتمعا. مقالات في بعض المجالات الفكرية
التي كانت تنشر في صيدا وله مقالة عن رجال الفكر في القرن السابع.

وفاته:

في مساء يوم ٥ إبريل ١٩٨٠ تم إعدامه مع أخته بنت الهدى بالرصاصة بأمر
من الرئيس العراقي السابق صدام حسين وفي اليوم التاسع من نفس الشهر
بحدود الساعة التاسعة ليلاً قطعت السلطة التيار الكهربائي عن مدينة النجف
الاشرف وفي ظلام الليل الدامس تسللت مجموعة من قوات الامن إلى بيت
محمد صادق الصدر وطلبوا منه الحضور إلى بناية محافظة النجف وكان
بانتظاره مدير أمن النجف فقال له: هذه جنازة الصدر واخته وقد تم اعدامهما
وطلب منه أن يذهب معهم للدفن وبعد أن طلب محمد صادق الصدر أن يرى
جثتيهما شاهد محمد باقر الصدر مضرجاً بدمه وآثار التعذيب على كل مكان
من وجهه وكذلك اخته بنت الهدى.

المحور الثاني

معطيات السيد الشهيد الصدر رحمته الله (بنظرة تاريخية)

إن المدرسة النجفية عاشت تقلبات كثيرة في عملية السير نحو تصحيح المسار
الذي كان يجب أن تسير عليه الحوزة العلمية في ذلك الوقت ولكن كانت

المعوقات كثيرة بسبب الاتجاهات التي لا توافق الرأي الصحيح، فانتفض الشهيد الصدر رحمته الله وذلك لأنه كان داعياً إلى ضرورة تحديث التفكير الكلامي الجديد الذي يكتسب معناه من خلال ولادة مجموعة من الفلسفات والتيارات الفكرية الجديدة لأنها تمثل واقعا قائما^(٧)، لذلك كان تعامل الإمام الصدر مع المشكلات القائمة تعاملًا قائمًا^(٨) من خلال تحديث المنهج وهو ما حاوله المفكر محمد باقر الصدر معتليا منبر الريادة الفكرية في عالم الإسلام المعاصر ملاكا مقدسا ورائدا هماما^(٩)، وكذلك تمتع بأخلاق فاضلة وإخلاص للعلم يصل حد الزهد، أما تجديده في علم الكلام والتفسير وأصول الفقه وفقه النظرية واستثماره المناهج الغربية الحديثة التي غالبا ما يصد عنها الفقهاء الآخرون. يقول الرفاعي بهذا الصدد "لقد انتقل الصدر بتفسير القرآن من التفسير التجزيئي الى التفسير الموضوعي التوحيدي الذي يوحد بين التجربة البشرية والقرآن ويصوغ المركب النظري القرآني حيال متطلبات الحياة المتنوعة وهو ما لم نعثر عليه في جل المحاولات التي جاءت بعد مشروع الصدر او سبقته بقليل واسمته نفسها تفسيرا موضوعيا". أما الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية بالنجف ظل راكدا لقرون الى ان جاء الطباطبائي وحرك ما ركذ منه. واسباب ركود الدرس هي ان "معظم اساتذة الفلسفة في الحوزة يعنون بالعرفان الإسلامي عناية خاصة فيعكفون على دراسة بعض المؤلفات الأساسية في هذا الحقل او لا يوجد من اساتذة الفلسفة او الفلاسفة في عالمنا اليوم تراكت لديه خبرة متميزة في شرح وتوضيح وتحليل النصوص الفلسفية والعرفانية في التراث الإسلامي كالخبرة التي لدى هؤلاء الاساتذة".

أما مديات التحديث فيمكن الإشارة إليها من خلال بعض الرؤى النقدية لعلماء معاصرين، من اعلام مدرسة النجف، وتحليلهم لظاهرة الانكفاء، ومناهضة أية عملية تطوير، وطغيان الحالة السكونية على الحياة العلمية في

الحوزة، والعلاقة بين هذه الحالة ونمط المفاهيم التي يدرسها التلامذة. يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر: ((الاستصحاب الذي قرأناه في علم الأصول، طبقناه على أساليب العمل، وطبقناه على حياتنا، فكنا نتجه دائماً إلى ما كان، ولا نفكر أبداً في انه هل بالامكان ان يكون افضل مما كان؟ لابد ان نتحرر من النزعة الاستصحابية، ومن نزعة التمسك بما كان حرفياً بالنسبة إلى كل أساليب العمل، هذه النزعة التي تبلغ القمة عند بعضنا، حتى أن كتاباً دراسياً مثلاً - امثل بأبسط الأمثلة - إذا أريد تغييره بكتاب آخر في مجال التدريس - وهذا أضال مظاهر التغيير - حينئذ يقال: لا ليس الأمر هكذا، لابد من الوقوف، لابد من الثبات والاستمرار على نفس الكتاب الذي كان يدرس فيه الشيخ الانصاري رضوان الله عليه، أو المحقق القمي رضوان الله عليه. هذه النزعة الاستصحابية التي تجعلنا دائماً نعيش مع امة قد مضى وقتها، مع امة قد ماتت وانتهت بطروفيها وملابساتها، لأننا نعيش بأساليب كانت منسجمة مع امة لم يبق منها احد، وقد انتهت وحدثت امة أخرى ذات أفكار أخرى، ذات اتجاهات أخرى، ذات ظروف وملابسات داعياً إلى توحيد الجهود بين المسلمين من اجل ذلك احتضن المذاهب الإسلامية الأخرى غير مميز بينهم^(١٠).

فرحم الله شهيدنا الصدر يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً.

هوامش البحث

- (١) النعماني، الشيخ محمد رضا، الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار، قم، ب.ط.، ص(٤٢).
- (٢) الجزائري، محمد جواد، رحلة الصبر في إظهار مثنوى الشهيد الصدر رحمته الله، مطبعة الأدباء، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص(١٤).
- (٣) م.ن.، ص(١٤).
- (٤) فرج، عودة عباس، الدولة في الفكر الفقهي عند السيد محمد باقر الصدر، مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث العراقية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص(٩٨).
- (٥) العاملي، احمد عبد الله أبو زيد، السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق، العرف للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص(٧٢).
- (٦) فرج، عودة عباس، الدولة في الفكر الفقهي عند السيد محمد باقر الصدر، ص(٩٨).
- (٧) الشيخ زيني، د. جاسم، الدولة في فكر محمد باقر الصدر، مؤسسة البديل، دار المتقين، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص(٩٢).
- (٨) الشبوط، محمد عبد الجبار، مقال بعنوان ((النقد الإبداعي في أعمال الإمام الشهيد الصدر))، مجلة الفكر الجديد، لندن، دار الإسلام، العدد (٤)، السنة (الثانية)، تموز يوليو، ١٩٩٣م محرم ١٤١٤هـ، ص(٣-١).
- (٩) النوري، فاضل، سبحات روحية في سيرة الإمام الشهيد الصدر، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص(٨٧).
- (١٠) البعاج، علي محمود، مشروع التحدي الحضاري عند الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله، ب.ط.، ص(٧١).